

الحجاج ابن يوسف الثقفي

مصطفى الشماع*

هذا الانسان العربي الغريب في مزاجه وأطواره وسياسته التي انتهجها وقد شغلت الناس والمؤرخين السياسيين والقادة في عصره وبعد عصره عصوراً طويلة فجعلتهم يتحدثون عنه وعن أعماله في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وكانوا في ذلك بين مؤيد وساحط .

الحجاج

ان الحديث عن الحجاج وما قام به من أعمال يحتاج الى وقت طويل وطويل جداً على أنني سأحاول ما استطعت أن أبحث عنه بالممامه أوجز فيها ايجازاً غير مغل .

ولد الحجاج زمن معاوية بن أبي سفيان في مدينة الطائف عام ٤٢ للهجرة واسمه كليب وأبوه يوسف بن الحكم الثقفي وأمه فارعة بنت عروة ، وذاع صيته أيام عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد ، اذ أنه اشترك في معظم الأحداث التي وطدت عرش عبد الملك والوليد فقضى على عبد الله بن الزبير وأخمد ثورات العراق وشرذ الخوارج حتى كاد يبيدهم وفتح رجاله وقد امتاز بحسن اختيارهم بلاداً في المشرق امتدت حتى وصلت الى الهند والصين .

كان الحجاج قبيح المنظر مشوه الخلقة أخفش العينين (أي ضعيف البصر) مبسوط الرأس وكبيره ولم يكن فارح الطول ولكنه كان ذا مهابة قوي الحجة والبيان وكان فوق هذا خطيباً بليغاً لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمانه وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين كما كان أكثر ما يعجبه الصراحة والصدق .

(*) باحث من القطر العربي السوري .

وهو يحكي عن نفسه فيقول ان أكبر لذاته في الحياة سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقوى على ارتكابها غيره وكانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات وكان يثق بنفسه ثقة عظيمة دل عليها اقدامه على ولاية العراق على حين أحجم عنها بنو أمية الذين استشارهم عبد الملك بن مروان عندما قال من للعراق فسكتوا وقال الحجاج أنا لها ثلاث مرات .

وكان الحجاج يعتقد أن قبح الخلقة من دواعي الضعف في الرجل الذي يتطلع الى عظام الأمور كما أنه مدعاة لسخرية الناس لهذا كان يحاول جهده في اخفاء بشاعته فيرجل شعره ويخضب أطرافه ، وكان فظاً وهو يصف نفسه بأنه حديد ، جسور ، حقود ، لجوج ، ذو قوة وحينما بلغ الحجاج سن الفتوة زاول مع والده مهنة تعليم الصبيان في الطائف وقد عيره الشعراء بهذه المهنة التي كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أنها حقيرة فقالوا :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

يشير الى أن خبز المعلمين كان يؤمن من قبل الأولاد ويختلف حجمه بين الكبير والصغير تبعاً لحال أولياء هؤلاء الأولاد بين الغنى والفقر .

ومما يدل على أن هذه المهنة لم تكن ذات مكانة ان أحد العلماء اضطر تأميناً لمعيشته أن يمتحن تعليم الصبيان فلم يشعر بعد فترة من الزمن الا وقد طراً بعض التشويش على ذهنه فقال على الفور :

ما عاش تحت الخافقين أقل عقل من معلم
ولقد دخلنا فن الصناعة من جديد رب سلم

ويروى أن الجاحظ مر يوماً بمعلم كتاب فوجده يحفظ أحد الصبيان آيات من القرآن على النحو الآتي : واذا قال يوسف لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر فقال له أراك تدخل آية في آية فقد جمع بين آية من سورة يوسف وآية من سورة مريم فأجابه والله ان والد هذا الطفل يدخل شهرته شهراً بشهر فأردت أن أعامله بمثل ما عاملني به فصرت أحفظ ابنه آية تدخل في آية .

لم تطب لنفس الحجاج الإقامة في الطائف فأخذ يحس رغبة عظيمة في مغادرتها ، وكان يرجح أن يغادرها الى دمشق ، حيث الترف والعز وحيث السياسة والسيف ، وكان يشعر أنه لم يخلق ليكون معلماً ، وأن آتیه سيكون قاتماً اذا ظل مقيماً في الطائف ، لذلك غادرها

ولكن لم يعلم الى أين ، غير أن الأغاني يذكر من أخباره ، انه حضر مذبحة (الحرة) في المدينة المنورة سنة ٦٣ للهجرة ، وأنه هرب منها تاركاً والده وحده ، وفي سنة ٦٥ ، وجد الحجاج مع أبيه في الجيش الذي أرسله مروان بن الحكم لمهاجمة الزبير في مكة ، والذي انهزم ، وتمكن الحجاج وأبوه من الهرب والنجاة بنفسيهما .

وعلى رواية ابن قتيبة ، أن أول ولاية وليّها الحجاج ، كانت تبالة في تهامة ، ولكن نفسه لم تطق قبول هذه الولاية لضيق رقعتها ، وضالة العمل فيها ، فتركها ، وقد قيل في المثل (أتفه من تبالة على الحجاج) .

وعاد الحجاج بعد ذلك الى مسقط رأسه في الطائف ، ثم غادرها الى حيث كانت نفسه تتوق ، غادرها الى دمشق ، فدخل في عداد رجال الجيش الذي كان يشرف على قيادته وتدير أموره المسمى ، روح بن زنباع الجذامي وزير الحرب زمن عبد الملك بن مروان ، وكانت الفوضى اذ ذاك توشك أن تكون عامة بين أفراد هذا الجيش ، وروح التمرد فاشية فيهم ، فنصح ابن زنباع الخليفة ، أن يقلد الحجاج أمر هذا الجيش ، لما وجد فيه من صفات تؤهله لذلك ، فاستجاب عبد الملك لطلبه ، وأخذ الحجاج في تأديب أفراد الجيش بقساوة ، بلغ من شدتها أن جاء ابن زنباع نفسه ، شاكياً باكياً الى عبد الملك ، فقال له ، ما بالك ، فقال يا أمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد جيشي ، ضرب رجالي وأحرق خيامي ، فقال له : عليّ به : فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت ، قال : ما أنا يا أمير المؤمنين ، بل أنت والله فعلت ، انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وقد اقتنع عبد الملك بأن ما قام به الحجاج في اخضاع الجند وتأديبهم ، حتى أصبحوا أطوع من بنان أمير المؤمنين اليه ، كان في محله ، لأنه لم ينس تلك الأيام التي ظهرت فيها الفوضى ، وتفشت بين أفراد الجيش ، وكان في هذا ما دل عبد الملك على ما تحلى به الحجاج من مقدرة ومهارة في ادارة الأمور ، وحسن تسييرها ، كما كان من شأن ذلك ، ان ارتفعت منزلة الحجاج .

وللحجاج اعتقاد غريب في خليفة المسلمين ، وفي اسلوب طاعته ، لم يسبقه اليه أحد من الولاة ، فهو يرى ، أن خليفة المسلمين تتجمع فيه صفات كاملة تجعله فوق مصاف البشر ، ويرى أنه مؤيد بالولاية ، معصوم من خطئ القول وزلل الفعل ، وهو يقول : ان من خدم الخليفة فقد خدم الحق ، ومن خرج عليه فقد حاد عن طريق الرشاد ، وجاز قتله ، تمشياً مع قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض) .

حدث الشيباني عن الهيثم عن ابن عباس الذي قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، واذا أتاه كتاب الحجاج يعظم فيه الخلافة ، ويرى أن السموات والأرض لم تقوما الا بها ، وأن

الخليفة أفضل من الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، وذلك لأن الله خلق آدم بيده ،
وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جنته ، ثم أهبطه الى الأرض ، وجعله خليفة ، وجعل الملائكة ،
رسلاً اليه .

وانه لمن الغريب حقاً ، ان عبد الملك بن مروان قد أعجب بما جاء في هذه الرسالة
اعجاباً عظيماً .

ولقد ظل الحجاج على هذه العقيدة ، في جميع ما اتبعه من أساليب في السياسة
والادارة .

ولما خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير في العراق سنة ٧٢ للهجرة اصطحب معه
الحجاج ، الذي أبلى في قتال مصعب وجنوده بلاء حسناً ، أظهر فيه ضروباً من الشجاعة
التي تصحبها كفاية ودراية ، وظل يدير الأمور بقيادة عبد الملك بحنكة ، وحسن تدبير ،
حتى هزم مصعب ، وقتل وتفرق جنده ، وبعد ذلك ، استتب الأمن في العراق ، وخضع لسلطان
بني أمية .

لم يعد يشغل بال عبد الملك بن مروان سوى بلاد الحجاز ، وللحجاز بالنسبة لبقية
أجزاء الامبراطورية الاسلامية الخاضعة لسلطان الأمويين ، منزلة كبرى لأن بلاد الحجاز هي
بلاد المسلمين المقدسة ، واليها تتجه أنظارهم ، وتهفو قلوبهم ، وفيها تقام شعائر ومناسك
الحج ، الذي يعتبر أكبر ظاهرة في حياة المسلمين الدينية والاجتماعية .

وكان عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة ، قد أعلن نفسه خليفة على
المسلمين بعد موت يزيد بن معاوية ، وبأيده أهل الحجاز واليمن ، فخاف عبد الملك بن
مروان على سلطانه ، ورأى أن لا بد من محاربته لتصبح بلاد المسلمين قاطبة ، خاضعة
لسلطان بني أمية .

فكر عبد الملك ، فيمن يعهد اليه بقيادة الجيش الذي يحارب ابن الزبير ، فلم يجد سوى
الحجاج لما رآه فيه حتى ذلك الوقت ، من مقدرة وحسن ادارة وحزم وتدبير مع طاعة
وولاء ، فأرسله سنة ٧٢ للهجرة ، على رأس جيش كبير من رجال الشام ، ثم عززه بعدد
وافر آخر ، وكان الحجاج آنذاك في عنقوان شبابه ما تجاوز الواحدة والثلاثين من عمره ،
فجارب ابن الزبير بشراسة وضراوة في البلد الحرام ، ونصب المجانيق ، ورمى الكعبة بها ،
واشتد الأمر على ابن الزبير ، حتى تفرق عنه كثير من أصحابه وأهله ، ومما يروى انه دخل
في اليوم الذي قتل فيه على أمه أسماء بنت أبي بكر ، وقال لها : يا أمه : خذلني الناس
حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ممن لا يصبرون على القتال طويلاً ، وعبد الملك
ابن مروان أوصى باعطائي اذا أنا تخليت عن الخلافة ما أريده من الدنيا ، فماذا تريد ؟
فأجابته بقولها المأثور :

أنت والله يا بني أعلم مني بما في نفسك، ان كنت ترى أنك على حق واليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، فقال لها : اني أخاف يا أمه ، ان قتلوني أن يمثلوا بي ، قالت يا بني : ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها ، ثم ودعها وخرج ، وظل يقاتل بشجاعة وإيمان ، حتى قتل هو وأكثر أصحابه وتفرق من حوله .

ولما خشي الحجاج عاقبة ما أصاب جماعة بني الزبير ، وما كان لهم من أشياع ، وهم ممن لهم شأنهم ومكانتهم في الحجاز ، بعد أن انكسرت شوكتهم ، ودالت دولتهم ، الأمر الذي قد يؤدي الى انحياز الناس اليهم ، والعطف على ما أصابهم ، فتعود الفتنة الى ما كانت عليه من النعمة عليه وعلى الخليفة عبد الملك، عمد الى تلافي الأمور ، فأخذ يدعو الى ما يبرر مقتل ابن الزبير وأصحابه ، وقد خطب في الناس خطبته التي قال فيها : الا ان عبد الله بن الزبير ، كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها وخلع طاعة الله ، واستكن بحرمة ، ولو ان عاصياً يكرم ، لما كان الله أخرج من جنته آدم لما عصاه ، وهو الذي خلقه بيده ، وأسجده ملائكته ، وأدخله جنته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

هذا وقد التزم الحجاج بعد مقتل ابن الزبير الشدة ، وأمعن في اضطهاد أعوانه حتى ضج منه الناس ، فخشي عبد الملك سوء المغبة ، فعزله عن الحجاز ، بعد أن اطمأنت نفسه الى طاعة أهلها له .

ويقال : ان سبب عزل الحجاج عن الحجاز ، ان الحجاج قصد عبد الملك بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، ومعه رجل اشتهر في الاسلام ، ولما دخل على الخليفة وسلم عليه قال : قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز ، في الشرف والأبوة، وكمال المروءة والأدب، وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة ، وهو ابراهيم بن محمد بن طلحة ، فان شئت أكرمته بما يستحق ، فقال عبد الملك : يا أبا محمد : أذكرتنا حقاً واجباً ، ائذنوا لابراهيم ، فلما دخل وسلم ، أمره عبد الملك بالجلوس في صدر المجلس ، وقال له : ان أبا محمد الحجاج ، ذكرنا ما لم نعرفه منك من الأبوة والشرف ، فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته الا سألتها فقال ابراهيم : أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ، ونرجو بها الثواب ، فما كان لله خالصاً ولنبيه ، ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا أجدر بدأ من ذكرى اياها : قال : أهى دون أبي محمد ؟ قال نعم ، قال : قم يا حجاج ، فنهض الحجاج خجلاً لا يبصر أين يضع رجله ، ثم قال عبد الملك : قل الآن يا ابن طلحة ، فقال : تالله يا أمير المؤمنين ، انك عمدت الى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق واصفائه الى الباطل ، فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأبناء المهاجرين والأنصار ، يسومهم الخسف ، ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ، قال : فأطرق عبد الملك ثم رفع رأسه ،

وقال : كذبت يابن طلحة ، ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك ، قم ، فربما ظن الخير في غير أهله ، قال فقمتم ، وأنا ما أبصر طريقتي ، وقد أتبعني بحارس وقال له : أشدد يدك به ، وقال ابراهيم : فما زلت جالساً ، خارج مجلس أمير المؤمنين ، حتى دعا الحجاج اليه ، فمازالا يتناجيان طويلا ، حتى ساء ظني ، وأنا لا أشك أن تناجيهما هو في أمري ، ثم دعا بي ، فلقيني الحجاج في الصحن وهو خارج من مجلس أمير المؤمنين فقبل ما بين عيني ، وقال : أحسن الله جزاءك ، قال فقلت في نفسي ، انه يهزأ بي ، ودخلت على عبد الملك ، فأجلسني مجلسي الأول ثم قال: يابن طلحة: هل اطلعت على نصيحتك أحداً، فقلت لا والله يا أمير المؤمنين، فقال عبيد الملك : قد عزلت الحجاج عن الحرمين ، وأعلمته أنك استقلت ذلك عليه ، وسألتني له ولاية أكبر ، ولقد وليته العراقين ، وقررت له ، ان ذلك بسؤالك ، ليلزمه من حقك ما لا بد له من القيام به ، فأخرج معه غير ذام لصحبته .

سافر الحجاج الى العراق سنة ٧٥ للهجرة ، فبدأ بمسجد الكوفة وهو مثلث بعمامة خز حمراء ، قد غطى وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان أهل الكوفة يعلمون بقدمه ، وكان الناس في فزع منه ، فصعد المنبر ، ومكث فترة طويلة لا يتكلم ، فقال بعض الجالسين ، لعن الله هذا ، ولعن من أرسله ، أرسل إلينا غلاماً عيباً ، لا يستطيع أن ينطق ، وأراد بعضهم أن يحصبه ، ولما رأى الحجاج عيون الناس اليه ، حسر اللثام عن فيه ، وألقى خطبته الملتهبة المشهورة :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني(١)

ثم قال : يا أهل العراق : اني لأرى رؤوساً قد أينعت ، وحان قطافها ، واني لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء بين العمام والمحي ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم(٢)

قد لفها الليل بعصبي أروع خراج من الدوي(٣)

مهاجر ليس باعرابي

قد شممت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجذوا

والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد(٥)

لا بد مما ليس منه بد

وتابع قوله : اني والله يا أهل العراق ، ما يقع لي بالشنان(٦) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وأن أمير المؤمنين ، أطال الله بقائه ، نشر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم(٧) في الفتنة واضجعتم في مراقد الضلال ، والله لأحزمنكم

حزم السلمة (٨) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، (فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيتها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) واني والله ، لا أقول الا وفيت ، ولا أهم الا أمضيت ، ولا أخلق الا فريت ، وان أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطيאתكم ، وان أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، ، واني أقسم بالله : لا أجد أحداً ، تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله . ثم قال : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم ، فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اسكت يا غلام ، ثم أقبل على الناس وقال : سلم عليكم أمير المؤمنين ؟ فلم تردوا شيئاً : هذا أدب ابن نهيبة (٩) والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب ، أو لتستقيمن ، اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ الى قوله سلام عليكم ، لم يبق أحد في المسجد الا وقال وعلى أمير المؤمنين السلام . ويقال انه لو لم يستعمل الحجاج الشدة في هذه الخطبة لأخفق في سياسته .

ظل الحجاج يقاتل المرتدين ويلاحقهم حتى استتب الأمر في العراق وخضع أهله للامويين وهكذا امتدت بعد ذلك الفتوحات نحو الشرق حتى وصلت الى حدود الصين .

لعل من أهم ما يسترعي اهتمام من يطلع على ما كتب عن الحجاج ، وعن أعماله ، في مختلف البلاد العربية التي ولي شؤونها ، وإدارتها خلال مدة طويلة ، هو الشدة القاسية ، التي كثيراً ما كان يرجع اليها ، وعلى الأخص ، في العراق حيث بلغت أقصى حدودها مع ضروب من القسوة التي جنح اليها في قوله وعمله ، في كثير من المواقف الخشنة ، التي كان يواجه بها أخصامه أو معارضيه فيتحداهم تحدياً سافراً يبلغ قسوته أن يصبح نوعاً من التعذيب والتنكيل دون خشية أو حذر ، ويكفيني تدليلاً على ذلك ، أن أشير الى بعض مقاطع من خطبه ، التي كان يجابه بها الناس ممن ولي أمرهم ، يريد بها إخضاعهم الى ما يطلبه منهم من طاعة واستسلام .

لقد قال في واحدة من خطبه ، حينما صعد المنبر ، وأشرف على الناس في المسجد المكتظ بالمصلين .

يا أهل العراق : اني لم أجد لكم دواء أدوى لدائكم ، من هذه المغازي والبغوث ، لولا طيب ليلة الاياب ، وفرحة القفل (١٠) من عندكم فهي تعقب راحة ، واني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ، ولا الراحة بكم ، وما أراكم الا كارهين لمقالتني ، أنا والله لرؤيتكم أكره ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ، ما حملت نفسي مقاساتكم ، والصبر على النظر اليكم ، والله أسأل حسن العون عليكم . ثم نزل عن المنبر .

وحين أراد الحجاج السفر الى الحج ، صعد المنبر في يوم سفره ، والمسجد مليء بالناس ، فبادأهم القول متحدياً اياهم بصوت أجش غاضب : يا أهل العراق ، اني أردت الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم : بخلاف ما أوصى رسول الله ﷺ في الانصار ، فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأنا أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الا أنكم قائلون بعدي ، مقالة ، لا يمنكم من اظهارها ، الا خوفكم ، تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ، واني أعجل لكم الجواب فلا أحسن الله عليكم بالخلافة ، ثم نزل عن المنبر .

ولعل من أهم ما تجب الإشارة اليه هنا ، بعد أن أوردت هذه النماذج من الأقوال والخطب المشحونة بالكلمات القارصة والمعاني المؤذية ، أن ذلك لم يقتصر على الأقوال التي هي أشبه ما تكون بالسباب والشتائم ، بل كثيراً ما كان الأمر يتعدى الى الأعمال الخسنة الظالمة ، التي تذهب بأرواح الكثيرين من الناس وذلك بمجرد أحكام متروكة لمشيئته وعلى أساس ما يتراءى له .

ولعل الحجاج في مجمل أعماله ، وخلال الأزمان التي قضاها ابان ولايته ، في مختلف الجهات ، قد قضى على الآلاف من الناس ، بمجرد حكمه عليهم بأنهم ممن يستحقون القتل بنظره ، وبمجرد شعوره بأنهم غير جديرين بأن ينعموا بالعيش ، وهم على ما هم عليه من رأي وعقيدة . لا تتمشى مع الطاعة والولاء لأمر المؤمنين الذي عهد اليه بالولاية عليهم .

ويروى أن الحجاج حينما يستدعي بعض الناس اليه ليتحدث معهم ويستمع اليهم في أيام الشدة كان يجلس في قاعة ذات بايين اثنين ، وكان الباب الأول ، لا يخرج منه الا من رضي عنه ، أما الباب الثاني ، فلا يخرج منه الا من وجده الحجاج انه ما زال على ضلاله بعيداً عن التسليم بما يطلب منه من طاعة ، وليس أمامه الا سيف الجلاد الذي ينتظره وراء الباب الثاني .

ويقال : ان أحد المستدعين الى هذه القاعة ، وقد طال الجدل بينه وبين الحجاج ، فقال له الحجاج ، اذن لم يبق لك الا أن تنصرف ، وكان الرجل ذكياً فطناً ، عليماً بأسرار المجالس ، يعرف ما لا يعرف غيره ، وشعر من حديث الحجاج معه ، انه لا بد هالك ، فقال للحجاج : قبل أن ينصرف ، يا حجاج : ان النصيحة أمانة في عنق المؤمن ، ولهذا فاني أسألك من أي باب تنصحنني أن أخرج ، فأطرق الحجاج حيناً ، ثم رفع رأسه ، وقال : لقد غلبتني أيها الرجل ، أشهد الله اني قد عفوت عنك ثم أخرجته من باب النجاة .

لقد وفق الحجاج بسياسته هذه توفيقاً عجيباً ، وأخذ على الفور بعد ذلك ، التطلع الى ما من شأنه ارضاء الناس عنه ، ساعده على ذلك أيضاً ان الجيوش الاسلامية ما برحت تسير ظافرة ، يقودها من بعثهم الحجاج من رجال الخليفة مختربة قلب آسيا ، موفقة بسيرها أينما اتجهت وحيثما حلت .

فكر الحجاج ، اذ ذاك ، بما لم يفكر به أحد من ولاية الاسلام ، قبله فمال الى العمران ، وابتدأ ببناء مدينة تقوم جديدة بذاتها وحديثة بالنسبة الى ذلك الزمن بكل ما فيها ، يؤمها الناس ، وتقصدها الجماعات من كل حذب وصوب فتزيد في توسيع رقعة البلاد الاسلامية ، وقد سماها (واسطاً) وولى ابن أخيه والياً عليها ، ثم اتخذها مركزاً له ، وقد شجعه هذا التوفيق في كل أعماله وتصرفاته التي قام بها ، على الالتفات الى الأخذ بالاصلاح في جميع نواحيه ، فأقام الجسور التي هدمتها الحرب ، كما فتح الأقنية ، وجفف المستنقعات وعني بالنظافة فعود الناس ما استطاع عليها في المدن والقرى ، بعد أن أوصى بها وعاقب من خالف تعاليمها ، ولم يدع ناحية من نواحي الاصلاح الا وحققها ، وكان من أهم ما عني به ، لغة الدواوين ، فقد جعلها عربية صرفة ، بعد أن كانت يونانية في سورية ، قبطية في مصر ، وبهلوية في العراق ، كما عني بتنقيط القرآن ، فأودع أمر ذلك الى العلماء والشيوخ الثقات الذين انصرفوا للعمل حتى أتموه .

وجدير بي بعد أن شرحت ما شرحت عن الحجاج وسيرته أن أنتقل الى جو آخر له صلة بطائفة من قصص وقعت مع الحجاج ففي سردها أشياء من المتعة تحلو وقد اقتصر في هذه القصص على التي ورد لها ذكر في أكثر المصادر التي بحثت عن الحجاج .

روى صاحب زهر الآداب :

ان الحجاج لما ظفر بعمران بن حطان الشاري أحد الخوارج قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدبك به أهلك يا حجاج . قال : ويحك المثلثي يقال هذا ؟ قال عمران : ثكلتك أمك ، أبعد الموت تريدني أن أصانعك ؟! فأطرق الحجاج برهة ، ثم نادى أن أطلقوا سراحه فقد عفوت عنه .

وقيل : ان الحجاج ، خرج يوماً للصيد مع قواده ، فضل الطريق ، فقابله أعرابي يرعى الغنم ، فسأله الحجاج ، ما رأيك يا أعرابي في الحجاج ؟ فقال : لا حياه الله ، ولا بياه فهو ظالم غاشم ، فقال الحجاج : لم لا تشكونه الى عبد الملك بن مروان ، فقال : لعنه الله هو الآخر ، لو لم يكن أعظم منه وأعشم ، لما ولاه علينا ، فلما لحق بالحجاج قواده ، وتبين للأعرابي أنه هو الحجاج ، همس في أذنه قائلاً : اجعل الحديث الذي دار سرأ بيننا يا حجاج ، لا تطلع عليه أحداً فضحك من قوله ولم يسئ اليه .

وهناك قصة أخرى ما برحت تنقل في كتب الأدب ، فقد روي عن أبي عباد قال : أدركت الخادم الذي يقوم على خدمة الحجاج ، فقلت له : أخبرني بأعجب شيء رأيته في الحجاج ، قال : ولّي ابن أخ الحجاج أميراً على مدينة واسط ، وكان بها امرأة يقال لها (أبة) لم يكن بواسط في ذلك الوقت أجمل منها ، فأرسل ابن أخ الحجاج اليها يراودها عن نفسها مع خادم له ، فأبت عليه ، وقالت : ان أردتني فاخطبني الى اخوتي ، وكان لها

أربعة أخوة ، فأبى ، وقال الا كذا ، وعاودها ، فأبت ، فراجعها وأرسل اليها بهدية ذات قيمة فأخذتها وعزلتها ، وأرسل اليها عشيبة ليلة جمعة ، اني أتيك الليلة ، فقالت لأمها : ان الأمير بعث الي بكذا وكذا ، فأنكرت أمها ذلك ، وقالت لآخوتها ان اختكم قد زعمت كيت وكيت ، فأنكروا ذلك . وكذبوها ، فقالت انه وعدني أن يأتيني الليلة فترونه قال فقعد اخوتها في بيت حيال البيت الذي هي فيه ، وجارية لها على باب الدار تنتظره فجاء ونزل عن دابته وقال لفلامه : اذا اذن المؤذن أذان الصبح فاتني بدابته ، ودخل والجارية أمامه ، فوجد أبه على سرير مستلقي ، فاستلقى الي جانبها ، ثم وضع يده عليها ، فقالت له : كف يدك يا فاسق ، ودخل اخوتها عليه ، وبأيديهم السيوف ، فقطعوه ثم لفوه في نطع وجأؤوا به ، الى سكة من سكك واسط ، فألقوه فيها . وجاء الغلام بالدابة فجعل يدق الباب دقا رقيقا فلا يجيبه أحد ، فلما خشي الضوء وأن تعرف الدابة ، انصرف وأصبح الناس ، فاذا هم بأمير واسط قتيلا على تلك الصفة ، فأتوا به الحجاج ، فقال عليّ بمن كان يخدمه ، فأتي به ، فقال له : اصدقني عن خبره وقصته فتردد فقال له : ان صدقتني لم أضرب عنقك ، وان لم تصدقني فعلت ، قال : فأخبره الأمر على جهته ، فأمر بالمرأة وأمها واخوتها ، فحسبهم ، وعزلت المرأة عنهم ، وسألها فأخبرته بمثل ما قال الخادم ، ثم سأل اخوتها فأخبروه بمثل ذلك ، ولم يختلفوا وقالوا نحن صنعنا به الذي ترى ، فقالت المرأة هديته عندي . فقال لها الحجاج ، بارك الله لك فيها ، وكثر في النساء أمثالك ، وان كل ما ترك من شيء فهو لك ، وقال لأعوانه مثل هذا لا يدفن بالقوة للكلاب .

وقيل :

دخل الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية وكنانة ، فبعثت الي الوليد أم المؤمنين بنت عبد الملك بن مروان تقول له ، من هذا الأعرابي المستلثم في السلاح عندك ، وأنت في غلالة ، فبعث اليها ، ان هذا هو الحجاج ابن يوسف ، فأعادت الرسول اليه تقول ، والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب الي من أن يخلو بك الحجاج ، فأخبره الوليد بذلك ، وهو يمازحه ، فقال يا أمير المؤمنين : دع عنك مفاكة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعها على شرك ومكايدة عدوك ، فلما دخل الوليد عليها ، أخبرها بمقالة الحجاج فقالت يا أمير المؤمنين ، حاجتي أن تأمره غدا يأتيني مسلما ، ففعل ذلك ، فاتاها الحجاج فحجبته طويلا ثم قالت له : ايه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث ، أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ، ما ابتلاك برمي الكعبة ، وقتل ابن ذات النطاقين ، اخرج لا أريد أن أرى وجهك ، فخرج ولم ينبس ببنت شفة .

وهذا أنموذج آخر وقع مع الحجاج :

حكى أن هند ابنة النعمان كانت أجمل أهل زمانها ، فوصف للحجاج حسننها ، فانفذ اليها يخطبها ، وبذل لها مالا جزيلا ، ثم تزوجها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ، ثم انها جاءت معه الى بلد أبيها في المعرة ، وكانت فصيحة أديبة ، فأقام بها

الحجاج بالمعزة مدة طويلة ، ثم رحل بها الى العراق ، فأقامت معه فيها وقد دخل عليها في بعض الأيام ، وهي تنظر في المرأة وتقول بصوت عال :

وما هند الا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت فحلا فله درها وان ولد بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج غاضباً ، ولم يدخل الدار ، ولم تكن هند قد علمت به ، فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ اليها ، عبد الله بن طاهر ، وأنفذ معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت عليه وقال له : يا بن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزدد عليهما ، فدخل عبد الله عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله ، فقالت : اعلم يا بن طاهر ، والله كنا فما حمدنا ، وبنا فما ندمنا ، وهذه المائتا ألف درهم بشارة لك بغلاصي من كلب بني ثقيف ، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ، ووصف له جمالها ، فأرسل اليها يخطبها ، فأرسلت اليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين ان الاناء ولغ به كلب ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب اليها يقول ، اذا ولغ الكلب في اناء أحدكم فليفسله سبعا . احداهن بالتراب ، فلما قرأت الكتاب لم يمكنها المخالفة ، فكتبت اليه بعد الثناء عليه ، يا أمير المؤمنين ، والله لا أحل العقد الا بشرط ، فان قلت ما هو الشرط ، قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة الى بلدك التي أنت فيها ، ويكون ماشياً حافياً . بحليته التي كان فيها ، أو (لا) فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ، ضحك ضحكاً شديداً ، وأنفذ الى الحجاج يأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين ، أجاب وامثل الأمر ، ولم يخالف وأنفذ عبد الملك الى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند في محمل الزفاف وركب حولها جواربها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ولما قربت من بلد الخليفة ، رمت بدينار على الأرض ، ونادت يا جمال : قد سقط منا درهم فارفعه لنا ، فنظر الحجاج الى الأرض ، فلم يجد الا ديناراً ، فقال انما هو دينار ، فقالت بل هو درهم ، قال بل دينار ، فقالت الحمد لله الذي أبدل درهما بدينار فنجعل الحجاج ولم يرد جواباً .

ومن مبادله ان الحجاج قد أهدي جاريتين احدهما سوداء والثانية بيضاء فقال لهما في ليلة من لياليه أريد من كل منكما أن تمدح نفسها وتذم رفيقتها فقالت السوداء :

ألم ترَ ان المسك لا شيء مثله وان بياض اللفت حمل بلهرهم
وان سواد العين لا شك نورها وان بياض العين لا شيء فافهم
فأجابتها البيضاء :

ألم ترَ ان البسر لا شيء مثله وان سواد الفحم حمل بلهرهم

وان رجال الله بيض وجوههم ولا شك ان السود أهل جهنم

فضحك الحجاج وأكرمها •

أدركت الحجاج المنية سنة ٩٥ للهجرة في مدينة واسط التي بناها وكان له من العمر أربعة وخمسون عاماً وقد دخل عليه وهو في غمرات الموت يعلى بن مخلّد المجاشعي وقال كيف ترى حالك يا حجاج من سكرات الموت فقال : يا يعلى : غماً شديداً ، وجهداً جهيداً ، وألماً مريضاً ، وسفراً طويلاً ، وزاداً قليلاً ، فويلي ان لم يرحمني الجبار •

ومما لا شك فيه ان الحجاج كان في مجمل ما قام به من شؤون في العراق والحجاز وغيرهما رجلاً فذاً جريئاً مقدماً يعجبه الصدق ويطمئن للكلمة الحسنة وقد أقدم على أعمال لها شأنها وأثرها في ادارة الأمور التي تتطلبها سياسة الشعوب بما يتفق والتقاليد والعقائد التي كانت متأصلة في النفوس وهو أول من وضع لبنة في توحيد البلاد العربية واخضاعها الى سلطان واحد وهو الى هذا خطيب بليغ قل ان وجود الزمن بمثله غير انه مات ولسان حال الناس فيه •

وكم شامت بي ان هلكت وقائل لله دره •

□ المصادر :

- ١ - ابن جلا : رجل فاتك من فتاك العرب •
- ٢ - زيم : اسم فرس الحجاج وناقته • السواق العظم : الذي يسوق الجمال بقسوة •
- ٣ - العصلي : الشديد القوي • الأروع : الذكي • الدوي : الفلاة المتسعة التي يسمع لها دوي في الليل •
- ٤ - أي ليس ساذجة غراً •
- ٥ - العرد : الشديد •
- ٦ - الشنان : جلد يابس يضرب عليه فيسمع له صوت تغاف منه الابل •
- ٧ - أوضعتم : أسرعتم •
- ٨ - السلمة : شجرة كثيرة الشوك •
- ٩ - ابن نهية : والي عبد الملك على الكوفة قبل الحجاج •
- ١٠ - القفل : لعودة •